المجلس الثالث

في مقام التلقي لبيان منهجية المنافقين في الإفساد وأسلوب خداعهم

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا
آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝
صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾.

٢ - البيان العام:

ههنا مربط الفرس! ههنا آية النفاق الكبرى: تحريف المفاهيم وقلب الحقائق، وتلبيس الحق بالباطل! ولقد أصاب القرآن المنافقين بهذه الآيات في المقتل! فما عاد بالإمكان أن يغترّ بهم إلا بليد! ولا أن يضعف عن إبصارهم إلا أعمى! فالقرآن العظيم سلّط عليهم الضوء هنا، وكشف منهجهم الإفسادي بثلاث فاضِحات:

الفاضحة الأولى: أن المنافقين يلعبون بالمصطلحات، ويحاولون تزييف حقائقها على الناس، وتحريف مفاهيمها الشرعية. فيسمّون الزنى والعري وما والاهما من

الفواحش « حرية »، ويسمُّون الخمور « مشروبات روحية! » ويسمُّون الكفار الظلمة « إخوة »! ويسمُّون موالاتهم للعدو المغتصِب « إنسانية »! ... إلى غير ذلك من ضروب التحريف والتزييف! حتى إذا خاطبهم الدعاة إلى الله ألا تفسدوا في الأرض؛ قالوا: بل نحن مصلحون! فسمُّوا الإفساد « إصلاحًا »! وقلبوا الأمر على المؤمنين فجعلوهم « مفسدين »! حيث اعتبروا مداراتهم للكفار وللمؤمنين في نفس الوقت؛ تقريبًا بين الفريقين وإصلاحًا بينهما! لكن فعلهم هذا - كما قال ابن كثير رحمه الله إنما يؤول إلى موالاة الكافرين ومناصرتهم على المؤمنين! ثم روى معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما(١)؛ ولذلك عقَّب الحق تعالى على زورهم هذا مباشرة، بعبارة قوية حاسمة، مسلحة بأساليب التوكيد والتنديد، فقال سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ لا يشعرون بمدى ما هم عليه من الضلال والتضليل! فليس أخطر على الناس ممن خلط عليهم الحقائق، ودلَّس عليهم الباطل بتزييف المفاهيم وقلب المصطلحات!

الفاضحة الثانية: أنهم يسمُّون الإيمان الخالص « سفهًا »! أو كما يعبرون اليوم « سذاجة »! وربما سموه في بعض الأحيان « إرهابًا »! والسفيه: هو الجاهل الساذج الضعيف الرأي، القليل المعرفة بالمصالح والمضارّ! كذلك وصف المنافقون زمن رسول الله ﷺ الصحابةَ الكرام، حاشاهم! وكذلك يصفون اليوم كل مؤمن صالح، وكل داعية إلى الله! وهم ههنا لا يصرِّحون بكفرهم تصريحًا وإن عبَّروا عنه ضمنًا، ولكنهم بدهائهم الخبيث يحاولون تقسيم الإيمان إلى نوعين، تمامًا كما يفعلون اليوم. الأول: إيمان البسطاء الأغبياء، والثاني: إيمان المتحضِّرين الأذكياء! وذلك لإضفاء الشرعية على ملابستهم للفساد وموالاتهم للكفار! وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ أي: وإذا قال لهم الدعاة اتقوا الله! وكونوا في إيمانكم على صراط مستقيم، بلا تناقض ولا اضطراب، على غرار المؤمنين الصادقين، الذين تطابقت أقوالهم مع أفعالهم؛ أجابوا ساخرين ومستنكرين: أنكون كهؤلاء الأغبياء البلداء؟ فنحن مؤمنون ولكن إيماننا هو إيمان العقلاء! ومن ثَمَّ فضحهم الله تعالى بهذا، وعقَّب عليهم مرة أخرى بقوة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(١) ن. تفسير ابن كثير للآيات. وانظر تفصيل الروايات في تفسير الطبري.

لا يعلمون مدى سفههم وجهلهم بالله وبمقامه العظيم! فلو علموا لخافوا عذابه، ولكن الله أركسهم في ظلمات الجهل بنفاقهم المقيت!

الفاضحة الثالثة: أن علاقتهم بالكفار هي علاقة ولاء عَقَديّ ومعية مذهبية، أو بلغة العصر: « ولاء إيديولوجي »! تلك هي حقيقة أمرهم. أما تظاهرهم بالإيمان فهو مجرد خداع « سياسي »! ولذلك فإنهم إذا خطبوا على المسلمين أو حدَّثوهم – بهذه المناسبة أو تلك – تظاهروا أمامهم بالإيمان، ولكنهم إذا خلوا في اجتماعاتهم الخاصَّة ولقاءاتهم المغلقة إلى ساداتهم من الكفار أكدوا لهم أنهم معهم! هكذا بهذه العبارة الدالة على الولاء الكامل، والنصرة الواضحة، والاندماج التام! ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ... ﴾ ونقل الطبري وابن كثير في معنى « شياطينهم » عن غير واحد من الصحابة والتابعين؛ أنهم: سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود، ورؤوس المشركين![1] لأن هؤلاء هم الذين يملون عليهم خططهم، ويلقون إليهم ببرامجهم؛ فيساندونهم ويناصرونهم على المؤمنين!

ومن ثَمَّ يؤكد المنافقون لأوليائهم – من خارج البيئة المسلمة – أن ظهورهم في المجتمع بمظهر الدين والتحلّي بأشكاله، إنما هو مجرد مخادعة للمؤمنين واستهزاء بهم! لأن هذا الأسلوب هو الذي يمكّنهم من تمرير كافَّة برامجهم التخريبية في التربية والتعليم والإعلام والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها؛ باسم « الدين المنفتح »، والسلوك الديني « المتسامح »! فذلك استهزاؤهم بالمؤمنين! فأجابهم الله تعالى بأنه هو ﷻ الذي يستهزئ بهم! أي يستدرجهم من حيث لا يعلمون إلى هلاكهم، بما يحصدون من خراب دينهم وخسران آخرتهم! ولذلك فهو تعالى يَمُدُّهُمْ في فسادهم الشديد هذا، الذي بلغوا به درجة الطغيان! ومعنى « يَمُدُّهُمْ » ههنا: يملي لهم، ويفتح لهم سُبل الشر، وييسرها لهم نكايةً بهم! وهو معنى « الاستدراج » الوارد في قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] فهذا المد الرهيب من الله ذي الجلال للمنافقين، إنما هو لزيادة ضلالهم وضياعهم في متاهات العَمَه! والعَمَهُ: عمى البصيرة! وهو الضلال الشديد

---

(١) ر. تفسير الطبري وابن كثير للآية.

الذي لا يُرجى لصاحبه اهتداء! فذلك هو قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

وما كل ذلك من المنافقين إلا ليربحوا الدنيا؛ لأنها الشيء الوحيد الذي يؤمنون به! فأبرموا صفقة تجارية خطيرة، وباعوا إيمانهم للشيطان على أساس أن يبدلهم به سلطةً وجاهًا وتمكينًا! لكنهم خسروا الصفقة في نهاية المطاف! فلا هم تمكّنوا من دنيا مريحة مليحة، ولا هم فازوا بسعادة الآخرة! فهذه معيشتهم شقيةٌ ضَنْكَى! وتلك آخرتهم أشد وأنكى! فخسروا بذلك والعياذ بالله مرتين! وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ قال قتادة: (قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة! ومن الجماعة إلى الفُرقة! ومن الأمن إلى الخوف! ومن السُّنة إلى البدعة!)[1].

ثم ضرب الله لهم **مثلين عجيبين**، كل منهما عبرة بليغة للمعتبرين وبيان حكيم للمتدبرين.

فالمثل الأول: أن الله - جلَّت حكمته - شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى بمن أشعل نارًا للاستصباح في ليل بهيم، فلمَّا توهَّجت وأضاءت ما حولها، وصار يرى الحقائق والأشياء والسُّبل انطفأت فجأة! فبات في ظلام دامس أشد مما كان عليه قبل إيقاد النار! لأن الظلمة بعد النور - كما هو معروف - تكون في العادة أحلك وأثقل! فذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ ﴾ فالمنافق بمقتضى هذه الآية يمر بمراحل ثلاث، الأولى: كفره الأول - أي قبل إعلان إسلامه - وهو الظلام الذي من أجله استوقد النار. والثانية: دخوله في الإسلام واستفادته من نوره، وهي النار التي استوقدها. والثالثة: ارتداده إلى كفره الأول، وهي الظلمات الثانية التي أحاطت به بعد انطفاء ناره!

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المنافقين قد آمنوا حقيقة ثم كفروا، بناء على قوله تعالى في سورة « المنافقون »: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره للآية.

يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣] والحقيقة أن صنف المنافقين الذين تتحدَّث عنهم سورة البقرة، لم يكن إيمانهم إيمان تصديق واعتقاد خالص. والنفاق العقدي في ذاته أنواع وأصناف، وإن كانت كلها تنتهي في النهاية إلى طبيعة واحدة، هي إبطان الكفر وإعلان الإيمان!

وأما هؤلاء فلم تسكن قلوبهم للإيمان ولا جوارحهم، وإنما كان إيمانهم إيمان تجريب! وقد كانوا على شكٍّ منه مريب! ولذلك فقد كانوا يُقبِلُونَ ثم يُدبِرُونَ مراتٍ عديدة! وهو ما بيَّنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء: ١٣٧] فهذا الإيمان لا يكون إيمانًا حقيقيًّا. والحاكم على هذا الترجيح هو ما سبق من التعريف الواضح بطبيعة النفاق - ههنا في سورة البقرة - من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ فكيف يكون مثل هذا إيمان حق؟ كيف وقد نفى الله عنهم صراحة حقيقة الإيمان بجملة اسمية ثابتة: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾.

ولذلك فالنور الذي استفادوه من إيقاد النار ليس هو نور الإيمان الحق كما ذهب إليه بعض المفسرين، وإنما هو نور معرفتهم للحق مجرد معرفة، ونور إبصارهم لسبيل الرشاد مجرد إبصار! كما يدل - من جهة أخرى - على الأمان على النفس والمال، والسلم الاجتماعي الذي يحرزه المنافق برفع شعار الإيمان! فلما عرفوا ما عرفوا واستفادوا ما استفادوا، ثم لم يستجيبوا بل ارتدوا على أدبارهم كافرين؛ ذهب الله بنورهم! أي ذهب بما نالوه من الأمان فبدَّلهم به خوفًا وقلقًا، وبما عرفوه من الحقّ فبدَّلهم به حيرةً واضطرابًا! وانتزع منهم إمكان الرجوع إلى إبصار الهدى انتزاعًا! عقوبة لهم على نفاقهم! ولذلك قال بَعْدُ: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ ﴾ أي فهم في حيرتهم هذه بعد انتزاع ما شعروا به من أمن وأمان ومعرفة لطريق الخير، يتعذَّبون الآن في حيرة شديدة واضطراب قاتل! حتى ربما ليودّ أحدهم لو تبينت له طريق الهدى مرة أخرى؛ فيتبعها ويسلك نهجها مع المؤمنين! لكن الله تعالى بما غضب عليهم قد حرمهم هذه الفرصة والعياذ بالله! فهم في وضعهم الأخير صُمٌّ عن سماع كلام الله، بُكْمٌ عن النطق بكلمة خير، عُمْيٌ عن إبصار بصيص نور؛ ولذلك فلا أمل لهم في الرجوع إلى فرص الهدى، التي أتيحت لهم من قبل مراتٍ عديدةً، فأهدروها

سخرية بالله وبرسوله والمؤمنين! وقد أكّد الخطاب القرآني استحالة عودتهم إلى الهدى بتعبير بليغ، هو ما يسمّى عند البلاغيين بأسلوب الالتفات، حيث التفت من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ... ﴾ الآية. وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في البيان، حيث خرج بالحكم من التمثيل إلى الحقيقة!

هذا الضرب من المنافقين هو الذي تتحدَّث عنه سورة البقرة ههنا. وثمة ضروب أخرى من النفاق نذكر بعضها خلال رسالات الهدى المنهاجي إن شاء الله.

المثل الثاني: هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ ذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن هذا مثل ضربه الله لصنف آخر من المنافقين، وهم قوم يعيشون حالة تردد بين الكفر والإيمان [1]. بينما ذهب جمهور المفسرين - وعلى رأسهم الإمام الطبري - إلى أنه مَثَلٌ آخر لكن لنفس الصنف الأول، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وحرف « أو » ههنا يفيد التساوي أو التخيير.

فقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴾ أي ومَثَلُهُمْ أيضًا كمطرٍ نزل من السماء في ليل بهيم، ثم هو مطرٌ مصحوب بسحبٍ شديدة السواد، فهي إذن ظلمات بعضها فوق بعض! تقذف من حين لآخر بالبروق والرعود، في صورة مخيفة رهيبة! فمَثَلُ المنافقين ههنا كقوم وجدوا أنفسهم بِخَلاء أو فلاة، تحت رهبة هذا الجو المظلم المخيف. فالصَّيِّبُ أي المطر النازل، هو بمثابة الهدى العام النازل من السماء، لكن نفاق هؤلاء يمنعهم من الاستفادة منه كما يستفيد المؤمنون. بل هم في عذاب بما أحاط بهم من أمور ثلاثة: ظلمات ورعد وبرق! فالظلمات هي ما أطبق على قلوبهم من الكفر والشك والريب! والرعد هو ما يصعق قلوبهم من الخوف الشديد؛ بما اقترفوا من جريمة المخادعة للمؤمنين، فهم أبدًا على فزع أن تنكشف حقيقتهم! ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] فكل آية تنزل في شأنهم تكون عليهم

---

(١) تفسير ابن كثير.

كالصاعقة! ولذلك قال: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ أي: والله ﷻ قدير على أخذهم متى أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وإنما هم لجهلهم بالله سبحانه يستخفون بنفاقهم عنه، وهو بكل شيء عليم!

وأما البرق فهو نور الإيمان الذي يتجلى لهم بشكل خاطف سريع، ما بين ظلمات الكفر وقلق النفاق؛ ولذلك فإنهم لا يستطيعون الثبات عليه، ولا القبض على شعاعه الهارب! بل إنه يزيدهم خوفًا وهلعًا! فكلما لمع كاد يحرق أبصارهم؛ لأن عيونهم ألفت ظلمات الهوى والضلال فلا قدرة لها على الانفتاح على النور! بيد أنهم يستفيدون جزئيًا من لمعة البرق هذه، فكلّما أضاءت لهم مشوا قليلًا، لكنها سرعان ما تظلم عليهم، فإنما هي لمعة برق وليست نورًا ثابتًا! فإذا أظلمت توقفوا حائرين! بمعنى أن إبصارهم للهدى وسماعهم لكلام الله - جل ثناؤه - رغم أنه في نفسه نور عظيم ثابت شاسع يسع العالم كله، فإن المنافقين لا يبصرون منه إلا لمعة برق تضرب في الأفق من حين لآخر وتختفي! فذلك قَدْرُ ما يستفيدونه من معرفة بالحق، لم تفدهم في الثبات على الهدى أبدًا. بل حقيقتهم الثابتة أنهم في ظلام دامس!

وقوله تعالى بعدها: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ هو على حقيقته لا مجاز فيه، بمعنى أنه لو أراد الله تعالى أن يعجّل لهم بعض العذاب هنا في الدنيا، وينتقم منهم بعض انتقام؛ لختم على آذانهم وطمس على أبصارهم! فصاروا عُمْيًا صُمًّا على الحقيقة الحسية، كما هم كذلك على الحقيقة القلبية! فاجتماع هاتين العاهتين - والعياذ بالله - هو من أسوأ البلاء! وذلك هو حال المنافقين على مستوى القلب! ولو شاء الله لجعله لهم على مستوى الحسّ أيضًا! فهو ﷻ على كل شيء قدير، وهو ما لا يعرفه هؤلاء المنافقون الجهلة بالله وبقَدْرِه العظيم!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو مُتضمِّن للرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن القرآن الكريم سمّى الحقائق والمفاهيم بأسماء خاصّة، وعبّر عنها باصطلاحات شرعية ثابتة، لا يجوز تغييرها ولا استبدال غيرها بها!

لأن ذلك ضرب من التحريف، ونوع من تغيير الكَلِم عن مواضعه! فقد سمّى اللهُ تعالى الإيمانَ « هدى » وسمّى الإنكارَ له « كفرًا » و « ضلالًا »، وسمّى المصدّق بالدين اعتقادًا وعملًا « مؤمنًا » و « مسلمًا »، وسمّى المنكِر له أو لبعض أركانه « كافرًا ». وسمى الـمُبْطِنَ للكفر والمظهر للإيمان « منافقًا »! تمامًا كما سمّى الصلاةَ صلاةً، والزكاةَ زكاةً، والصيامَ صيامًا، والحجَّ حجًّا. كلها اصطلاحات شرعية ثابتة، تغييرها يعني تدمير الدين وتحريف القرآن العظيم!

ومن ثَمَّ وجب على المؤمنين الثباتُ على لغتهم الشرعية، والعضُّ على اصطلاحاتها الربانية بالنواجذ، وألا ينهزموا أمام الحرب الثقافية والإعلامية، التي تشوّه مضامين المصطلحات الإسلامية، وتبتدع لها ما يناقضها وتروّج له؛ لخلط الحق بالباطل، وتلبيس الفساد في الأرض بالصلاح والإصلاح! بل نسمي المحظور في الشرع « حرامًا »، والواجب فيه « واجبًا »، كما نُسمّي الفساد بشتى ضروبه « منكرًا »، والصلاح « معروفًا ». هذا جهازنا المفهومي لا نقبل فيه مساومة ولا نرضى عنه بديلًا؛ لأن مصطلحاته الشرعية هي أسماء سمّاها اللهُ! وكلمات من كلماته جلَّ علاه، أنزلها وحيًا على رسوله من فوق سبع سموات! فلا قيمة بعد ذلك للغة التراب!

ففي العالم اليوم حرب مصطلحات شرسة، لابد للمؤمنين والدعاة منهم خاصّة أن يتسلّحوا لها بسلاحها! وإنما سلاحها هو القرآن؛ تداولًا لخطابه وانتصارًا لمصطلحاته. وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

الرسالة الثانية: في أن النفاق أصناف وضروب! منها ما ظهر في عهد النبوة، ومنها ما ظهر في العصور اللاحقة. لكن آيات القرآن في المنافقين – مما ورد في سور شتى – جامعة لكلِّ تلك الأصناف والضروب. مثل ذلك طائفة « الزنادقة » التي ظهرت في المجتمع الإسلامي بعد عصر الفتوح، وهي طائفة دخلت الإسلام ظاهرًا بغرض تخريبه من الداخل! فنشرت العقائد الباطلة بين المسلمين، وأشاعت الفواحش القاتلة، وتزعمت حملة وضع الحديث النبوي والكذب على رسول الله ﷺ بما يحرف الدين تحريفًا خطيرًا! ولذلك فقد كانت أحكام الفقهاء على هؤلاء تختلف عن أحكامهم على المنافقين من الصنف الأول، الذين أظهروا الإسلام خوفًا على

مصالحهم الخاصّة فقط، فحفظوا لهم بذلك أموالهم ودماءهم. ولكن كان لهم مع الزندقة والزنادقة حساب آخر!

وممن ينطبق عليه قول المفسرين بأنهم آمنوا حقيقة ثم كفروا! قوم آمنوا ابتداءً ثم فتنتهم إغراءات الكفار وشهوات الشيطان؛ فارتدوا على أدبارهم كافرين، مع الاحتفاظ برفع شعار الإسلام! وهؤلاء يجوز وجودهم في عصر الرسالة وبعدها. ويلحق بهم من ورث الدين والإسلام عن والديه وبيئته الإسلامية، ثم فتنته الشهوات والشبهات بما ألقى الشيطان في قلبه من هوى المذهبيات الضالة والإيديولوجيات الإلحادية؛ فتنكر لكلِّ حقائق الدين، واستخف بما جاء عن سيد المرسلين، لكنه ظلَّ يعمل في خفاء محتفظًا بلقب « مسلم »، على غرار منافقي العهد النبوي! فكل هؤلاء وأولئك داخل تحت ربقة « النفاق ». وأما من أعلن إلحاده وكفره فهو جدير بما صرح به!

الرسالة الثالثة: في أنه ما من طائفة من المنافقين الخُلَّص، إلا ومن ورائهم سند خارجي يستندون إليه، ويحتمون به! تمامًا كما كان المنافقون في العهد النبوي يلتفتون سرًّا إلى شياطينهم من اليهود والمشركين، فيعقدون معهم العهود والاتفاقات؛ لمحاصرة الدعوة الإسلامية والانقلاب عليها! فلكلِّ زمان منافقوه ولكلِّ عصر شياطينه، لكن المنهج هو المنهج، والأسلوب هو الأسلوب! فتلك سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّه في الاجتماع البشري، كلما كانت هناك بيئة إسلامية يُخشى رد فعلها ولو بعض خشية ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فكان على الداعية الحكيم أن يقرأ ذلك كله، ويستحضره عند رسم خطواته وضبط مسيرته. وأن يتعرف على الجهات المعادية للدين وأهله تمام التعرف، وكذلك على من يقف خلفها ويحمي ظهرها من شياطين العصر هنا أو هناك. فهذا علم قرآني لا يجوز لأصحاب دعوة الخير الجهل به، أو الاستخفاف به. فإنما فصّل اللَّه البيان في طوائف المنافقين تفصيلًا؛ لعلمه تعالى بأن قضية الأمة معهم خالدة! خاصّةً كلما عزمتْ على النهوض من سُبات!

الرسالة الرابعة: في أن المؤمنين إذا ما اتقوا ربهم حق تقاته، وعملوا بمقتضى ما آتاهم اللَّه من هدى؛ فلا خوف عليهم من كيد المنافقين ولا من التفافهم وغدرهم، مهما أُوتي هؤلاء من قوة، ومهما كان لهم من سند الشياطين، فإنهم

بإذن الله خاسرون مهزومون! فحالهم بين المؤمنين الصادقين والدُّعاة المخلصين هو كما صوَّرهم الله تعالى في المثَلَين المضروبين لهم قبل، أي ما بين من استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله فَقَدَ نورَها! وبين من يستفيد لَمْعَةَ برقٍ خاطفٍ في الظلمات، فأنَّى يستقيم له السير؟ وأنى يكون من الفائزين؟ كذلك حالهم في الدنيا والآخرة. ففي اللحظة الحرجة يتخلَّى الشياطين الكبار عن أوليائهم الصغار ويخذلونهم شَرَّ خذلان! وهو ما سجله التاريخ مرارًا وتكرارًا، ولقد شاهدناه في حوادث هذا العصر واضحًا جليًا!

ذلك نصر إلهي ومدد رباني، ولكن إنما يؤتاه « المتقون »، بشروطهم وأوصافهم المذكورة في أول السورة. جعلني الله وإياكم منهم!

الرسالة الخامسة: في أن المسلم إذا اشترى شيئًا من متاع الدنيا وزينتها ببعض دِينِه؛ فقد وقف على حافَّة الهلاك! لأن ذلك هو الباب المفضي إلى هاوية النفاق أو الكفر الصريح والعياذ بالله! فمن اشترى اليوم بعض الضلالة ببعض الهدى؛ لا يؤمَن عليه غدًا أن يشتري كلَّ الضلالة بكلِّ الهدى! فيخرج بذلك من رِبقةِ الإيمان! وليحذر المؤمن تَزْيِينَات الشيطان التي قد تتلبس أحيانًا بفتاوى بعض العلماء، مما لم يحالفهم فيه الصواب، أو مما كان عندهم خاصًا بحالات معينة من ضرورة شرعية غير وهمية، فيوسوس لك الشيطان أنك أنت أيضًا معنيٌّ بها، ولو اطلع ذلك العالم على حقيقتك لما أجازها لك! ومن هنا ورد في الحديث الصحيح المليح: « **البِرُّ مَا سَكَنَتْ إليه النفسُ واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما لم تسكن إليه النفسُ ولم يطمئن إليه القَلْبُ؛ وإن أفتاك المفتون!** » [1] والعاصم من ذلك كله التزام الورع والبعد عن الشبهات! وفي الحديث: « **وخير دينكم الورع!** » [2].

الرسالة السادسة: في أن الصبر والاحتساب هو زاد الصالحين والمؤمنين الصادقين، في كل عصر تكالب فيه المنافقون على منابر الثقافة والإعلام! وذلك لِمَا يَلقونه من تسفيه وإهانات وتشويه للصورة والسمعة؛ مما يجعل كثيرًا من ضعيفي النفوس – من

(١) رواه أحمد عن أبي ثعلبة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) جزء حديث رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

المسلمين - يتحرّجون حتى من الظهور بمظهر المتدينين! وكم من فتاة مسلمة لا يمنعها من ارتداء لباسها الشرعي الساتر، والاستقامة على منهج الدين قلبًا وقالبًا؛ سوى هذا الوابل السيئ من قذائف السباب والتسفيه التي تشوه المرأة المسلمة وتحطّم معنوياتها! والأصابع الشيطانية التي تشير إليها من كلّ مكان! وكثير من الرجال يتخلّى عن بعض حقوق ربّه لنفس العلة، لا لفقه خاصٍّ ولا لمقصد شرعي، وإنما هو فقط الخوف من الوقوع ضحية النعوت والألقاب الساخرة! وإنما المؤمن الحق في هذا الزمان هو من يقبض على دينه كما يقبض على الجمر! بذلك ورد الحديث النبوي الشريف: « **يأتي على النّاسِ زَمَانٌ الصّابِرُ فِيهِمْ على دِينِهِ كَالقَابِضِ على الجَمْرِ!** »(١) فهذا زمان الصبر والمجاهدة بالقرآن. فنسأل الله العافية والثبات!

الرسالة السابعة: رسالة منهاجية جامعة: وهي في حكمة تقسيم البشرية إلى الأصناف العَقَدِيّة الثلاثة: مؤمنين وكافرين ومنافقين.

فالقرآن هو رسالة الله إلى الناس أجمعين. والناس في الأرض شعوب كثيرة، ولغات متعددة، وحضارات مختلفة، ومِلَل ونِحَل شتى! فجاء هذا الكتاب بأول خطاب له - بعد الفاتحة المقدمة له - يصنف فيه البشرية تصنيفًا غير معهود! إنه تصنيف على حسب العقيدة فقط، وألغى كل التصنيفات الأخرى، فلا عبرة بالأنساب ولا باللغات ولا بالأعراق! وإنما هي عبرة واحدة: الانتساب التعبدي لله ربِّ العالمين!

لقد جاء هذا القرآن للبشرية بالهدى، معرّفا إيّاها بالله خالقها وخالق العالمين أجمعين، فتكلّم به الربُّ العظيم ﷻ يخاطب عباده كلَّ عباده! واصفًا نفسه تعالى بما هو أهله من الرحمة الواسعة والملك العظيم - كما تبين في الفاتحة - ومن ثَمّ بيّن للناس أنهم عباده، وأنهم ملزمون بعبادته وحده دون سواه بما هو ربهم ومالكهم أجمعين! فلا قيمة ههنا لعروبة عربي ولا لعجمة عجمي، ولا عبرة بلون أو عرق أو جنس! فالناس كل الناس عبد! هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تجمع الخليقة كلها في حدٍّ جامعٍ مانعٍ! وبذلك جاء الهدى رحمة للعالمين. نعم هو رحمة لكنها رحمة ملزمة؛ لأن الربَّ الجليل ألزم العبيد بأداء حقّه عليهم! وما ذلك إلا عين الرحمة!

---

(١) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح الجامع الصغير.

وما للعبد من خيار، فإما أن يكون مطيعًا فيعمل بمقتضى العبودية، وإما أن يكون عاصيًا فيكون من الآبقين، وإما أن يتذبذب ما بين الأمرين؛ والربُّ ﷻ لا يقبل تذبذبًا؛ فيلحقه بالآبقين!

ومن ثَمَّ جاء هذا التصنيف الجديد للبشرية على أساس مواقفها من تلقِّي الهدى، والذي عليه يبتني رضا الربِّ أو سخطه! فنظر ﷻ إلى عبيده، وسمَّى المقبلين عليه: « مؤمنين » و « متقين »، وسمَّى الجاحدين المتكبرين: « كافرين »، وسمَّى المتذبذبين: « منافقين »! وميَّز كلَّ فريق بأوصافٍ خاصَّةٍ ونعوتٍ لازمةٍ، وسننٍ ثابتةٍ تحكمه حالًا ومآلًا، أبدًا عبر التاريخ إلى يوم القيامة!

وبمصطلح « الإيمان » جعل الله سبحانه المؤمنين في الأرض – كل الأرض – أمة واحدة! لا فرق بين هذا الشعب أو ذاك، ولا بين هذا الجنس أو ذاك إلا بالتقوى! وإن هذا لمن رحمة الله العظيمة، لو تدبره المتدبرون! يُقتل طفل في فلسطين فيسيل دمه بماليزيا أو بالمغرب، ويذبح شعب بالبوسنة فتضج له القلوب بالسودان أو الباكستان! إنها أمة واحدة، وستبقى أمة واحدةً رغم ما يمزِّقها من المآسي والجراح! كذلك جعلها القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وكذلك وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام: « **مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم؛ مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى!** » (١).

كما أنه بمصطلح « الكفَّار » جعل الله تعالى الكفر في الأرض – كل الأرض – ملةً واحدةً! مهما اختلفت مِلَلهم ونِحَلهم! فإن بعضهم أولياء بعض، تجمعهم جميعًا عداوة الخير ومحاربته! والتمرُّد على الخالق العظيم ﷻ والتنكُّر لحقوقه! صحيح أن « أهل الكتاب » كان لهم تمييز خاص في القرآن؛ لِمَا امتازوا به من علم سابق بالنبوءة والوحي، ولكنَّ ذلك إنما كان عليهم لا لهم! حيث أقام عليهم القرآن الحجة بلقب « أهل الكتاب »؛ لأنهم عرفوا الحق فجحدوه! ولذلك كانت له معهم في سورة البقرة وغيرها جولات وجولات! قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟

---

(١) متفق عليه.

﴿ كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾، ومن ثَمّ أدخلهم الحق تعالى في مصطلح الكفار! ولم يزالوا منذ القديم يتحالفون – يهودًا ونصارى – مع الوثنيين والمجوس والملاحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ليثبتوا معجزة القرآن في التصنيف الإلهي للبشرية: أن الكفر ملّة واحدة!

ثم إنه بمصطلح « المنافقين » حاصر القرآن شرذمة الخيانة داخل البيئة الإسلامية، التي توالي العدو سرًّا، وتعلن إيمانها تقيةً! وكشفَها للمؤمنين كشفًا، بصفاتها اللازمة وخصالها الفاضحة؛ حتى يُحذَرَ شرُّها ولا يلتبس أمرها على المسلمين! وبذلك أيضًا جعل « النفاق » أمة واحدة! فالمنافقون هم هم، أينما كانوا وأنّى كانوا! لا فرق بين أعراقهم وقومياتهم! فأنت تراهم اليوم يتعاطفون فيما بينهم ويتوادُّون ويتساندون، في كل بلدان العالم! فكلمّا أنكر المسلمون على أحد منهم هنا أو هناك؛ قاموا جميعًا محتجين في كلِّ مكان! قاموا باختلاف جنسياتهم وقومياتهم ولغاتهم وألوانهم، لا يجمعهم شيء سوى النفاق! ثم تحقّقت فيهم سُنّة الله الثابتة إلى يوم القيامة: مساندة الكفار لهم ونصرتهم لقضاياهم!

فَتبيَّنَ هؤلاء وأولئك تسير قافلة المؤمنين إلى ربِّها، خاشعة عابدة، تسير بتقواها إلى مولاها، حتى يورثها الله خلافة الأرض، ويجعلَها يوم القيامة حُجّةً على العالمين!

هكذا انطلق المقطع الأول للقرآن يعرض الهدى للناس، كلِّ الناس، مبينًا أنه لن يستفيد من نوره سوى المؤمنين، الذين تواضعوا للذي خَلَقهم وجاؤوا إليه طائعين مخبتين! أما من استكبر عن عبادة ربِّه، وألَّه نفسه وكبرياءه من الكفار والمنافقين؛ فلن يبصروا من حقائقه شيئًا! ومن ثَمّ كان هذا الكتاب – من حيث الفائدة – خاصًّا بالمؤمنين به فقط. نعم هو يعرض الهدى للجميع، ويقيم الحجج والبراهين، لكن من أبى حُجِبَ، ومن استجاب دخل في حِمَى المؤمنين؛ وكان من الفائزين بما ينال من هدى القرآن الكريم.

ولذلك فنداؤه هو ما بين: « يا أيها الناس » و « يا أيها الذين آمنوا » أو ما في معناهما. لكنه يعتني بالمؤمنين عناية خاصّة، إنها عناية السيد الكريم بعبده المطيع! فبين لهم سبيل السير إليه تعالى صراطًا مستقيمًا، ويفصل لهم منهاج بناء أمتهم لبنةً لبنةً، فلا يزال المؤمنون بين مدافعة هؤلاء ومدافعة أولئك؛ يعبدون ربَّهم ويُبلِّغون

رسالاته شهادةً على الناس؛ حتى يُمَكِّنَ لهم في الأرض ويُعْلِي منازلهم في الآخرة. وبذلك تتم نعمة الله على عباده الصالحين.

ذلك هو مدخل القرآن – من أوائل سورة البقرة – وصفٌ عام لطبيعة البشرية في الأرض، وتصنيف لأممها على ميزانه، وزرع جديد لبذرة الإيمان وسط تلك الابتلاءات جميعًا!

٤ - مسلك التخلق:

فأما هذا المسلك فهو راجع إلى مجاهدة النفس للتخلُّق **بثلاث حقائق إيمانية**، هي:

أولًا: المجاهدة لفرض لغة القرآن ومصطلحاته الشرعية، وبذل الجهد لإشاعتها في التداول الاجتماعي، والامتناع القاطع عن استعمال مصطلحات الآخرين في التعبير عن حقائق الدين وأهله! ثم ممارسة النقد على لغة السياسة والإعلام، للإسهام في إحداث وعي لدى المسلمين بخطورة حرب المصطلحات! ولا شك أن الاجتهاد في تنمية مجالس القرآن العامَّة والخاصَّة وتكثيرها، لهو من أكبر الوسائل الفعالة لإكساب المسلم مناعةً ضد المفاهيم المضلِّلة؛ لأن القرآن الكريم يعرض مصطلحاته بقوة ووضوح؛ فيتبين الحقُّ ويزهق الباطلُ! والتمرس على مدارسته تحلِّي المتدارسين بلغته، وذلك هو المطلوب.

ثانيًا: الالتزام بسنن التدافع المبينة في القرآن، والمفصَّلة في السنة النبوية والسيرة الشريفة. وذلك بالاعتكاف على مُدَارسة كتاب الله وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام؛ لتلقِّي الهدى المنهاجي الضابط لمسيرة المؤمنين بدينهم ودعوتهم، خلال ابتلاءات هذا الواقع الموصوف بأصنافه. فتحت كل كلمة من كلمات القرآن حكمة بالغة، وخلف كل قصة من قصصه سُنَّةٌ ثابتة! ومن التهور المجهول الإعراضُ عن تلقِّي ذلك الهدى وعن الالتزام به في السير الدعوي، وعند إنشاء الخطاب الإسلامي الموجَّه للمؤمنين أو لغيرهم؛ لأن ذلك الإعراض ضَرْبٌ من المعصية يستوجب العقاب، كالمخالف لأحكام الحلال والحرام سواء! ومن خالف معالم طريق ضلَّ عنها! نسأل الله الهدى والسداد، والعفو والعافية!

ثالثًا: التوكُّل على الله والثقة به تعالى، عند حمل رسالاته بصدقٍ وبلاغها

بإخلاص. ذلك جوهر التعبُّد وقصُّ الإيمان! وهو السبب الأكبر في استجلاب معيّة الله تعالى ونصرته! وإنما التوكل يكون بإحكام الفعل بضوابط الشريعة، وتوقيعه على مقتضى قواعد السنن، وتخليص القلب من الأهواء تخليصًا؛ حتى يكون الفعل كله لله، وذلك هو العزم. ثم بعده مباشرة يصح استمداد الولاية من الله، وتوطين القلب على الثقة التامّة به جلّ علاه. وذلك هو التوكل! قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

* * *